عودةُ الروح إلى «مصر الخالدة»

فيصل درّاج*

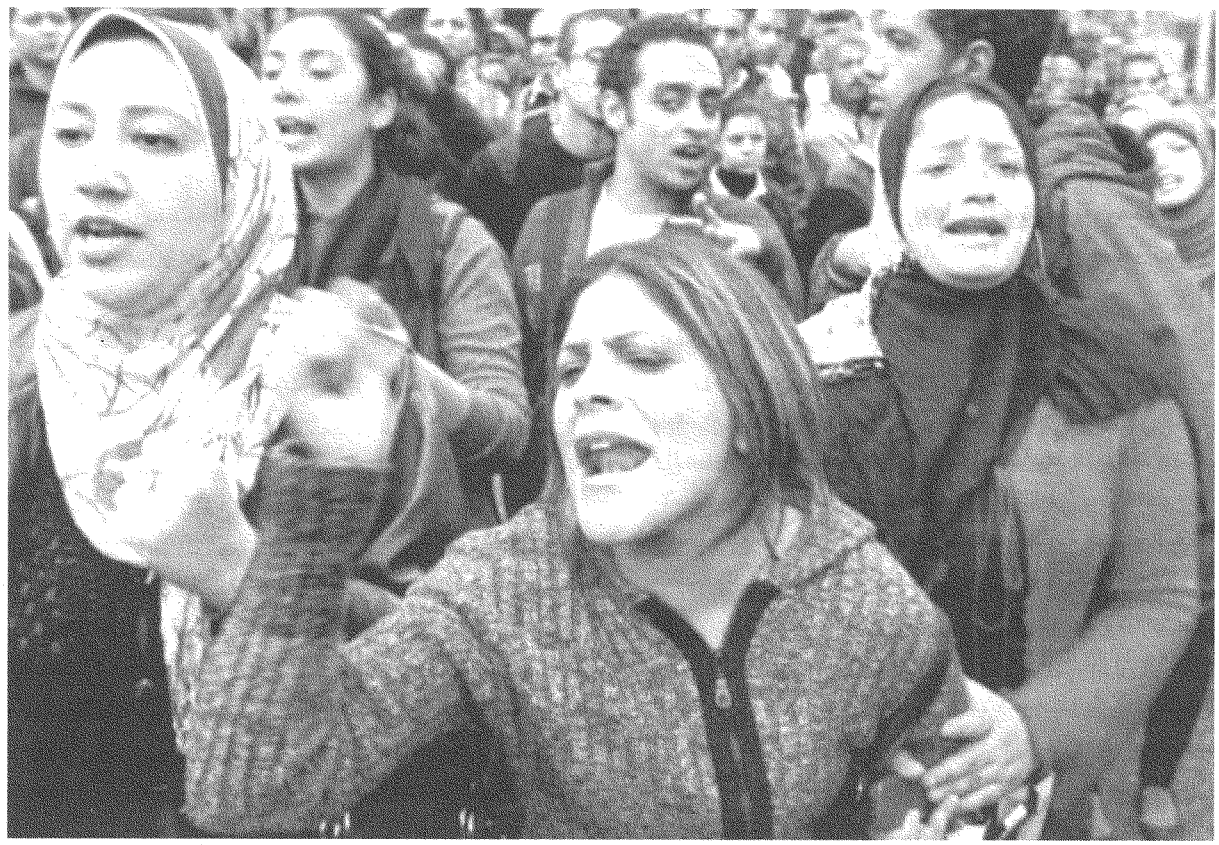

قال سعدي يوسف قبل أن يستقرّ في منفاه البريطانيّ: «أمنيتي هي أن أشارك يومًا، كمواطن عاديّ، في انتخاباتٍ ديمقراطيّةٍ لا تزوير فيها.» لقد عبّر الشاعرُ العراقيُّ هنا عن أماني ملايين من العرب، يعيشون ويموتون محرومين من حقوق المواطنة، منتظرين يومًا أشبهَ بالمعجزة. ولعلّ هذا اليوم، الذي يشبه المعجزة، هو الذي جعل «المعذّبين في الأرض» يروْن في انتفاضة الشعب التونسيّ حدثًا تاريخيًا أقربَ إلى الحلم، في وقت بدا فيه العالمُ العربيُّ يدخل طورَ احتضاره الأخير.

---

* - كاتب فلسطينيّ

بيْد أنّ ما يجري في مصر اليوم، دون مساءلة ما سيَؤُول إليه، وسّع أحلامَ العربيّ المقهور، وأمدّها بأبعادٍ جديدة، لأنّ مصر عاصمةُ العرب وبوصلتُهم الحقيقية. فبعد أن استقرّ في العقل العربيّ أنّ «مضحكات مصر الباكية» عصيّةٌ على الرحيل، جاء صوتُ وادي النيل ليدفن ركودًا مهيمنًا أذلّ العربَ والمصريين عقودًا طويلةً. إنه صوتٌ واسعٌ شاسعٌ يمتدّ من الشمال إلى الجنوب، ومن الصحراء إلى البحر، ويعلن هادرًا أنّ حياة السلطة لا تصادر سلطةَ الحياة، وأنّ «عبقرية المكان» (التي آمن بها الجغرافيُّ المصريُّ العظيم جمال حمدان) تغفو طويلاً ولكنّها لا تغفو إلى الأبد.

ما الذي يعطي مصرَ هذا المكانَ الرحيبَ في الوجدان العربيّ؟ ولماذا تبدو مصرُ عاصمةً، وما خارجها محضَ أمكنةً؟ ولماذا لم يؤْمن العربيُّ يومًا بأنّ ما خارج مصر لا يعوِّضُ من مصر، وبأنّ اليُتم العربيّ الموشّحَ بالسواد والمهانة لن يرحل إلاّ برحيل الاستبداد والتبعيّة عن مصر، وبأنّ إرادة الشعب العربيّ لا تستقيم إلا إذا غادر مصرَ ذلك الاعوجاجُ الذي صنعه رؤساء مزوِّرون أقربُ إلى السلاطين؟

❖ ❖ ❖

السبب الأول صادرٌ عن تاريخ مصر الحديث الموزّع على ثلاث ثورات، ناقصةٍ ومجهَضةٍ ومهزومة، امتدّت من نهاية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين. ثوراتٌ ثلاث عبّرتْ عن روح مصر وطموحات الشعب العربيّ في آن:

ـ أوّلها ثورةُ عام ١٨٨٢ بقيادة أحمد عُرابي، الضابط الوطنيّ الذي واجه الاستعمارَ الإنجليزيّ في معركة «التلّ الكبير،» وقادتْه هزيمتُه إلى المنفى. ومع أنّ شاعر القصر، أحمد شوقي، هجا هذا الضابط المهزوم، ونعته بـ «الصَغَار،» فإنّه تناسى أنّ تلك الهزيمة كانت ناجمةً عن معركة غير متكافئة بين الكرامة الوطنيّة والمدفعيّة الإنجليزيّة. وبهذه المعركة، أعلن عُرابي، الذي مات فقيرًا، عن جماليّة التمرّد، التي تبدأ من تكامل الروح ولا تلتفت كثيرًا إلى صفوف المدفعيّة، وآمن بأنّ مصر للمصريين، وأنّ قرار المصريين يجب أن يكون مصريًا، وأنّ من يستعير قرارَه من غيره لا يستحقّ الحياة. وبهذا أَعلنت الثورةُ، التي هُزمتْ، عن دور «المثقف الوطنيّ،» قبل تداول هذا التعبير، حين أوكلتْ شأنَها الدعائيّ والتحريضيّ إلى عبد الله النديم، خطيبِ الثورة العُرابيّة، الذي قضى مسمومًا (كحال السوريّ العظيم عبد الرحمن الكواكبي، الذي شرّح معنى الاستبداد تشريحًا غيرَ مسبوق). وإذا كان في خُطَب النديم، ذلك الصحفيّ المقاتل، ما يكشف عن روح عُرابي الملتهبة، فإنّ صورة الطرفيْن تجلّت في رحاب الريف المصريّ، الذي أجار عبد الله النديم تسعَ سنواتٍ كاملة، قبل أن يشي به مُخْبرٌ صغير.

ـ ولم يلبث المصريون أن استأنفوا ثورتهم، بشكلٍ موسّع وطويل، في عام ١٩١٩، بعد أن أخذ سعد زغلول موقعَ أحمد عُرابي، وبعد أن حفظت النفوسُ كلماتِ مصطفى كامل، «لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس،» مؤكّدين أنّ اليأس الذي حلّ عليهم موقّتُ الإقامة. غير أنّ للثورات عمرَها الذي لا يدوم، مثلما أنّ في الثورات خللاً يحيل لهبَها إلى رماد. وما إنْ رحل سعد، بعد أن أرهق القمعُ الإنجليزيّ المصريين إرهاقًا ووضع أدواتِه التابعة، حتى عادت مصرُ إلى ما لا تريده. لكنْ لم تتبدّد أطيافُ الثورة ، التي اعتبرها نجيب محفوظ ثاني ثورة شعبيّة في تاريخ مصر.

ـ كان جمال عبد الناصر يضع في مكتبه، كما يقال، صورةَ نخلةٍ تنتظر الرعاية. وكان معجبًا، كما يقال، برواية **عودة الروح** لتوفيق الحكيم، الذي قرأ الزمن قراءةً باردةً في مسرحيّته **أهل الكهف**. لم تكن النخلةُ التي تناجي وادي النيل إلا مصرَ، ولم تكن عودةُ الروح المستعادة إلا عبدَ الناصر، ذلك الفارسَ التائهَ الذي انتهى به الترحالُ إلى أرض مصر، كما جاء في كتابه **فلسفة الثورة**. وسواءٌ كانت في الكتاب فلسفةٌ مهيبةٌ واضحةُ المعنى، أو أفكارٌ تصوغها الأحلامُ، فقد كان في مشروع عبد الناصر بعدان أساسيّان: مصريّةُ القرار المصريّ، التي ترسل تحيّةَ وفاءٍ إلى عُرابي؛ والدفاعُ عن حقوق المصريين، وهو الذي قالت به ثورةُ ١٩١٩. ولعلّ هذين البعدين هما اللذان قادا إلى إلغاء المعاهدات المعقودة مع الإدارة الاستعماريّة، وهما اللذان اقترحا تأميمَ قناة السويس عام ١٩٥٦، بعد أربع سنوات على ثورة عبد الناصر التي أطاحت بالعهد الملكيّ.

«ارفعْ رأسَك يا أخي»: إنّها جملةُ عبد الناصر الشهيرة التي حفظها المصريون طويلاً. بيْد أنّ جملته، وهو القائد الذي وسّع اكتشافَ المصريين لعروبتهم توسيعًا غيرَ مسبوق، كانت موجّهة إلى العرب والمصريين معًا، بقدر ما كانت إنذارًا حاسمَ النبرة لـ «أذناب الاستعمار» (بلغة ذاك الزمان). قاد الالتزامُ القوميُّ عبدَ الناصر إلى الوحدة مع سوريا، وإلى إرسال جيشه لمحاربة النظام اليمنيّ العقيم، وإلى محاولة بناء مصر جديدة، إلى أن جاءت هزيمةُ ١٩٦٧.

قال وزير الخارجيّة الأمريكيّ جون فوستر دالس، بعد انتصار عبد الناصر في حرب السويس عام ١٩٥٦ أو العدوان الثلاثيّ: «يجب أن لا تتكرّر هذه الظاهرةُ إلى الأبد.» هكذا هُزمت الظاهرةُ الناصريّة مثلما هُزمتْ ظاهرةُ محمد علي باشا في منتصف القرن التاسع عشر، وهُزمتْ معها حقبةٌ كاملةٌ من التحرّر العربيّ. بعدها، جاء الهوانُ الطويلُ يمشي مرتاحًا، على قوائم من استبدادٍ ونفطٍ واستعمال سلطويّ للدين يوطّد الاستبدادَ ويبارك «النفطَ المتأسلم» الذي لا يفيد العرب في شيء. وبعدها، عادت مصرُ محضَ مكانٍ جغرافيّ، له استخداماتٌ متعدّدة، ومحضَ سلطةٍ بين سلطاتٍ مهزومةٍ أخرى، وألقي رمادٌ كثيرٌ على أطياف عُرابي وزغلول وعبد الناصر.

❖ ❖ ❖

يتمثّل السببُ الثاني في دور الثقافة المصريّة الحديثة في صوغ الوجدان والعقل العربيين. فما من عربيّ عاقل يتحدّث عن الحداثة إلاّ ويذهب إلى مصر محمد علي في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ وما من مثقف عربيّ يتحدّث عن التنوير إلا ويذهب إلى الطهطاوي ومحمد عبده؛ وما من عربيّ يتحدّث عن

الديمقراطيّة والعقلانيّة والتنوير ومراجعة الموروث إلاّ ويذهب إلى طه حسين، وما من أحد يفتّش عن «علمانية إسلاميّة» (وهو مصطلحٌ واهنُ القدميْن) إلاّ ويرجع إلى الطهطاوي وعبده وعلي عبد الرازق، وإلى نسق من المثقفين الكبار، آخرُهم نصر حامد أبو زيد، المواطنُ الصالح الذي رَفعتْ عنه الحمايةَ سلطةٌ غيرُ صالحة.

لقد أعلن الشعبُ المصريّ عن عودة مصر إلى التاريخ، وهي عودةٌ تؤكّد أنّ تحويل المجتمعات العربيّة إلى مقبرة واسعة أمرٌ مستحيل.

لا تَصْدر أهميّةُ مصر الثقافيّة على الصعيد العربيّ عن دور مثقفيها في صوغ حداثة ثقافيّة متعدّدة الوجوه، بل عن الاستقبال العربيّ لهذه الحداثة، التي تمدّدتْ وتطوّرتْ وأخذتْ أشكالاً جديدةً في زمن «الهوان الطويل» وقبله. فقد ازدهرت الرواية في العالم العربيّ، لكنّ نجيب محفوظ كان رائدًا؛ وتجاوز سعد الله ونّوس ومسرحيّون عربٌ آخرون توفيق الحكيم، لكنّ الأخير بقي رائدًا؛ وظهر أدونيس ومحمود درويش والسيّاب وآخرون، لكنْ بقيت كتاباتُ عبد الرحمن شكري و «ديوان» العقاد والمازني مرجعًا مضيئًا؛ وعرف العالم العربيّ ما شاء من الكتابات النقديّة، ولكنْ بقيتْ أطيافُ أحمد ضيف ومندور ولويس عوض (اللامع المغبون) ولطيفة الزيّات (الماركسيّة المقاتلة حتى الرمق الأخير)؛ وكتب القصةَ القصيرةَ كتّابٌ عربٌ ممتازون، دون أن يَحْجبوا موقعَ يوسف إدريس ويوسف الشاروني وغيرهما. إنها إضاءةٌ ما، كانت تأتي أولاً من مصر ثم يستضيفها العرب؛ وشرارةٌ ما، كانت تصدر عن مصر أولاً قبل أن يتقيها أنصارُ الظلام في بلاد العرب؛ وصرخةٌ ما، كان يرسلها المصريون أولاً قبل أن تردّدها أصواتٌ عربيّةٌ لاحقة.

«وفي مصر كثيرٌ من المضحكات، لكنه ضحكٌ كالبكاء.» إذا كان هذا الأمر قد وُجِد في زمن المتنبّي، فقد تمدّد طويلاً منذ أن جاء انتصارُ الثورة المضادّة في العالم العربيّ بالرئيس الراحل أنور السادات، الذي سعى إلى حجب شروره بحديث مستفيض عن «مصر الخالدة،» إلى أن سقط قتيلاً على المنصّة. فبعد مجلات مصر المضيئة (**الرسالة، الرواية، الثقافة، الكاتب المصريّ، ومجلّة** يحيى حقّي)، انتهى الأمر إلى مجلة **اكتوبر**، التي مدح فيها كاتبٌ ذائعُ الصيت لُطْفَ جولدا مائير وأُنْسَ موشيه ديان، وأمعن في هجاء الفلسطينيين وإذا كان عبد الناصر قاد المصريين إلى إعادة اكتشاف بعدهم القوميّ العربيّ، فقد أيقظ السادات نزعةً فرعونيّةً كاذبة، برّرت انسحابَ مصر من العالم العربيّ، والتحاقَها بالقواعد الأمريكيّة التي ساوت (ولا تزال) بين اعتقال الشعوب العربيّة وتأبيد «الأمن الإسرائيليّ.» ولأنّ في «لاعروبة» مصر اعتقالاً للإرادة المصريّة ينافي مبادئ العقل السليم، فقد كان على السادات أن يستفزّ قوى الخراب المتعدّدة. فوسّع السجونَ، ودمّر مناهجَ التعليم، واحتفل مع حلف الأطلسيّ بـ «انتفاضة بولونيا،» ودعم «المقاتلين من أجل الحريّة» في أفغانستان، وأطلق إسلامًا سلطويًا رخيصًا كاد أن يُسبغ عليه العصمةَ، وحاصر الفلسطينيين، ورهن إرادةَ مصر مقابلَ الطحين الأمريكيّ، وأعطى ذاته لقبَ «الرئيس المؤمن» المرتاح إلى مجتمع «العلم والإيمان» ــ الذي هو في الواقع محضُ فولكلور يلغي معنى المجتمع والعلم والإيمان معًا. هكذا، حقّقت الساداتيّةُ حلمَ جون فوستر دلس في خلق مصر مختلفة، لا تستطيع القتالَ، وإن قاتلتْ هُزمت قبل المعركة وبعدها، وأصبح دورُ مصر توطيدَ استقرار المصالح الأمريكيّة والإسرائيليّة، واحتلّ الشيخُ الراحل الشعراوي مكانَ طه حسين، مندِّدًا بقوميّةٍ عربيّةٍ كافرة أنزل اللهُ بها القصاصُ الشديد.

أعقبت الساداتَ سلطةٌ غيّرت الشكلَ واستبقت المضمونَ: إذ لـ «الأمن المركزيّ» وجودُه المسيطر، وإذ بين الدين والنفط عروةٌ وثقى، وإذ الفقرُ والإفقارُ ركنان من أركان الأمّة، وإذ لـ «العشوائيّات» امتدادٌ رهيبٌ عنوانُه «بشرٌ أُجّل دفنُهم» يحاصرهم رعبُ الرغيف وتُعاملهم السلطةُ بعنف شعارُه «محاربة الإرهاب.» ولم يكن ذلك الإرهابُ، المزعومُ أو الحقيقيّ، إلا محصّلةً لسياساتٍ لا ينقصها من الإرهاب شيء، قوامُها: الإفقارُ، ونهبُ المواطنين، والإثراءُ غير المشروع، وذلك الفسادُ الواسعُ الأرجاء الذي أنتج «رجالَ الأعمال» العاملين على نقل قوت الشعب المصريّ المشروع إلى البنوك الأجنبية، بل إنّ بعضهم أصبحتْ له ميليشيا خاصّةٌ به، تحمي سرقاته وتحميه من غضب الشعب المسروق. وما إن استقرّ الخرابُ الشامل، أو كاد، حتى جاء شعارُ «التوريث،» الذي أعلن أنّ «مصر الخالدة» ملكيّة خاصّة، مؤمنًا في سرّه أنّ الشعب المصريّ غدا جثّةً هامدة.

❖ ❖ ❖

بيْد أنّ تلك الجثّة الهامدة لم تكن جثّة أبدًا. كانت فيها أشياءُ من أطياف ثورات مصر. وكان فيها غضبُ الجائعين، وتمرّدُ المهانين، وبحث جريح عن مستقبل مفترض كاد أن يتلاشى في عوالم اليأس الواسعة. وكان فيها أشياء من «عودة الروح» التي ترفض أن تصبح مصرُ قرية بائسة، وأن يغدو النظامُ المصريُّ قاعدة الاستقرار في «الشرق الأوسط» يرى أمن إسرائيل ولا يرى من حقوق الشعوب العربيّة شيئًا. لقد أعلن الشعبُ المصريّ عن عودة مصر إلى التاريخ، وهي عودةٌ تفصل فصلاً باترًا بين ما قبل وما بعد، وتؤكّد أنّ تحويل المجتمعات العربيّة إلى مقبرة واسعة أمرٌ مستحيل.

من أين تأتي الثورات وإلى أين تذهب؟ تأتي من غياب الرغيف ومصادرة الكرامة، وتذهب إلى حيث يشاء لها التاريخُ أن تذهب. تحيّة إلى مصر أحمد عُرابي وجمال عبد الناصر، وتحيّة إلى مصر طه حسين وعلي عبد الرازق ونصر حامد أبو زيد، وتحيّة إلى شباب مصر الذين هزموا اليأس والاستبداد، وأعادوا الاعتبار إلى «اللامتوقّع» الجميل الذي يُسعف المغلوبين على الاستمرار في الحياة.

عمّان